

نماذج رائعة من رفاقي الشيوعيين تقتحم ذاكرتي في الزمن الصعب

يخطر في بالي عدد من رفاقي الشيوعيين القدامى. جاءوا إلى الذاكرة في شكل عفوي من إتجاهات وجهات لا يربط بينها تاريخ محدد ولا مهمة محددة. غريبة هذه الذاكرة الانسانية في منطقتنا استحضارها للأحداث وللأفراد.

تذكرت الرفيق ميشال بدورة. وهو أستاذ جامعي ومثقف كبير. وكانت له في مجلة "الثقافة الوطنية" زاوية تحت اسم مستعار كان يضع فيها أفكاره بطريقة ساخرة وممتعة. تعرّفت إليه في مطلع خمسينات القرن الماضي ثم صار صديقاً حميماً لي مع عائلته، زوجته وابنته وولده وبالأخص منهما الدكتور رفيق صديقي الدائم. كان يتمتع ميشال بشخصية جميلة متعددة سماتها جعلته قريباً من كل من كان يتعرّف إليه.

وتذكرت الفنان التشكيلي الرفيق الجميل ميشال المير. كان ميشال فناناً تشكلياً مبدعاً. وكان شيوعياً بأفكاره وبكل أحاسيسه. وكانت له علاقات واسعة مع عالم الفن التشكيلي. وبواسطته تعرّفت إلى عدد من هؤلاء الفنانين التشكيليين الكبار عمر الأنسي وفيصل الجميل ورشيد وهبي على وجه الخصوص. وبواسطته أصبحت مع هؤلاء صديقاً أزورهم بين وقت وآخر حاملاً لهم في بعض الأحيان بيانات كان يصدرها مجلس السلم العالمي داعياً فيها إلى نزع السلاح من أجل توقيعها. لكن علاقتي بميشال تجاوزت ذلك العالم الجميل إلى عالم آخر عزّفت فيه ميشال إلى بعض الذين صاروا أصدقاء مشتركين من الأوساط الثقافية ومن الأوساط البرجوازية التي كان له الفضل في تعريفني إلى عالمهم المختلف.

وتذكرت إبراهيم نعيم بزي. الرفيق "أبو نعيم" وهو من جيل الثلاثينات في الحزب. إنتسب إلى الحزب خلال لقائه مع القائد الشيوعي فرج الله الحلو في إحدى جولاته الجنوبية التي شارك فيها بتأسيس عدة منظمات حزبية من ضمنها منظمات بنت جبيل وعيترون ومرجعيون وإبل السقي وسواها من القرى والبلدات الجنوبية. ربطت أبو نعيم في تلك الفترة علاقة حميمة مع القائد الشيوعي الآخر آرتين مادايان الذي أقام في فترة من حياته الحزبية في مدينة بنت جبيل. الميزة الأساسية التي يعرف بها "أبو نعيم" تتمثل في كونه ظل أميناً لإنتمائه الفكري خلال الانتداب الفرنسي وفي ظل الاحتلال الإسرائيلي، وفي ظروف صعبة أخرى تلت تحرير أرض الجنوب من الاحتلال. لم يركع

أمام أي جبار من أي نوع. صمد وقاوم وصبر. وصار في الجنوب خصوصاً، وفي كل مكان، نموذجاً رائعاً للشيوعي ونموذجاً رائعاً للإنسان الحقيقي. يضاف إلى ميزته المشار إليها ميزة الاهتمام بالفكر والأدب وقراءة وحفظاً لبعض الآثار الأدبية والفكرية. كانت لقاءاتي المتواصلة معه منذ الخمسينات تجمع بين الهَمّ الحزبي والهَمّ السياسي والحديث في شؤون الأدب قديمه وحديثه. وقادني ذات يوم إلى مكتبته التي أدهشني فيها ذلك العدد الكبير من الكتب في شتى ميادين المعرفة. وصرت كلما صدر لي كتاب أخصّه بنسخة منه مع إهداء أعبر له فيه عن حبي وإحترامي وتقديري الكبير له ولتاريخه المجيد.

وتذكرت الرفيقة ثريا عدرة، تلك المرأة الرائعة التي قادت لسنوات عديدة لجنة حقوق المرأة. تميزت الرفيقة ثريا بشخصيتها الجذابة، وبكفاحيتها، وبشجاعتها، وبالعلاقات الواسعة التي أقامتها بإسم لجنة حقوق المرأة في لبنان وعلى الصعيدين العربي والعالمي دفاعاً عن حق المرأة اللبنانية والعربية في الحرية وفي المساواة مع الرجل. لم تكن ثريا عضواً عاملاً في صفوف الحزب. لكنها كانت تعتبر الحزب الشيوعي حزبها. وهو ما جعلني أتعامل معها ومع زوجها رجل الأعمال الكبير عبد الله عدرة كعضوين أصيلين في الحزب.

وتذكرت الرفيقة فكتوريا نعمان. وتذكرت تاريخها الذي روته لنا عندما كانت مذيعة خلال الحرب العالمية الثانية في الإذاعة الرسمية في بغداد بصفتها يسارية عراقية ثم داخل السجن باسم شيوعيتها الذي لم تخرج منه إلا بعد أن اقترنت بحبيبها الطبيب الشيوعي اللبناني قصدي الشهال. وأبعدت معه من العراق إلى لبنان عبر دمشق. تذكرت فكتوريا التي أصبحت بعد زواجها رائدة نسائية لبنانية. وتعرّفت إليها وإلى عائلتها منذ مطالع خمسينات القرن الماضي. وتابعت نضالها على امتداد حياتها. وحين أتذكرها أتذكر معها زوجها رفيقي وصديقي الدكتور قصدي الشهال وابنتها المبدعة السينمائية رندة وابنتها الإعلامية نهلاء.

وتذكرت خوري عاليه الياس حداد والخورية إلياس الرشمانى حداد، تذكرتهما كشيوعيين كلّ منهما على طريقته من دون حذر ومن دون أي شعور بالتناقض بين موقعيهما الدينيين وبين انتمائهما العام بفكرة الشيوعية وبما يتصل بها من سياسات ذات صلة بذلك التاريخ. أتذكرهما وأتذكر لقاءاتي بهما مع شلة من الأصدقاء في عاليه وفي بيروت. ولن أنسى ذلك الصوت الجميل الذي كان يمتعنا به الخوري الياس وهو يغني بعض أغاني عبد الوهاب. ولن أنسى ما كانت تمتعنا به الخورية إلياس بالنكات الطريفة وطريقته الجميلة في رواية تلك النكات.

وتذكرت الرفيق جورج أبو نادر. كان جورج يعمل في مكتب أحد المحامين الكبار في بيروت منذ شبابه الباكر. لم يدرس المحاماة في الجامعة إسوة بالذين مارسوا المهنة. لكنه، مع الزمن، وبالتجربة، أصبح مرجعاً قانونياً في أمور المهنة إعتدته الحزب في كثير من القضايا الحساسة. وكان جورج شريكاً في العمل في الميدان الاقتصادي بتلك المهنة التي مارس فيها عصاميته. أهمية جورج إنه جمع بين أخلاقه ومناقبيته وطريقة عمله في الميدان القانوني وبين نشاطه الحزبي في العاصمة بيروت وفي الجبل وفي مهمات متعددة. وقد تعلّمت من سعة أفقه ومن تجاربه في الحياة الكثير. إنه نموذج راق للشيعوي الحقيقي.

وتذكرت الرفيق محمد الخطاب ابن بيروت وتاريخها. كان محمد محامياً في الاستئناف. وكان يمارس مهنته منذ بدايات تخرجه. انتسب إلى الحزب الشيوعي وصار أحد قادة المنظمة الحزبية في العاصمة قبل أن أصبح أنا عضواً فيها. تعرفت إليه خلال وجودي في إتحاد الشباب الديمقراطي العالمي. إذ كان يشارك بإسم شبيبة الحزب في فعاليات الاتحاد. لكنني تعرفت إليه جيداً في عام ١٩٥٧ في المهرجان العالمي للشباب والطلاب الذي جرى تنظيمه في موسكو، ثم في المؤتمر الرابع لإتحاد الشباب الديمقراطي العالمي في كيبف. وتوطدت علاقتي معه في عام ١٩٥٨ عندما كنت مكلفاً تحت قيادته ببعض المهمات في مركز المقاومة في أحداث ذلك العام. كان محمد في المهمات التي كُلف بها بإسم الحزب نموذجاً راقياً للرفيق وللصديق وللمسؤول الحزبي، متواضعاً، خلوقاً، يتعامل مع الرفاق بإحترام نادر المثال بحيث لا تكاد ترى فرقاً عنده بين القائد والرفيق. توفي محمد الخطاب في عام ١٩٥٩ وهو في ريعان شبابه، بعد أن عاد من مدرسة الحزب في موسكو متأثراً بمرض سرطان الدم الذي عجل في رحيله.

وتذكرت الرفيق إسبر البيطار. ومن لا يعرف هذا الضابط الشيوعي الذي تميز خلال وجوده داخل صفوف الجيش، وحين خرج من الجيش بإسم شيوعيته في أحداث ١٩٥٨ وتحول إلى رمز؟ أول معرفتي بإسبر كانت في مركز المقاومة الذي كان يشارك محمد الخطاب المسؤولية عن العمل العسكري فيه. كان إسبر خلال مسيرته الطويلة رمزاً للشجاعة وللعمل المسؤول ورمزاً للمحبة في العلاقة التي نشأت بينه وبين الكثير من القيادات السياسية خلال تلك الأحداث وما بعدها. وتوطدت علاقتي به على امتداد الأعوام التي تلت تلك المرحلة. وازدادت معرفة بسمات الشيوعي الشجاع فيه المحب لرفاقه والوفى لحزبه والأمين لأفكاره.

وتذكرت الرفيق الرائع الدكتور نزيه مظلوم صاحب المستشفى الذي يحمل اسمه في طرابلس. وهو إلى جانب كونه طبيباً اشتهر بخدماته على صعيد طرابلس والشمال مثقف واسع الثقافة متعدد ميادين المعرفة. وقد ربطتني به علاقات صداقة منذ الخمسينات مع زوجته هند. وكثيراً ما كنت أزوره لأناقش معه ما كان قد توصل إليه من بعض الأفكار التي كانت تستهويه لا سيما ما يتعلق منها بالعلوم الحديثة التي كانت تتجاوز معارفي. وأشهد أن هذا الإنسان الشيوعي العريق كان بكل ما التصق به من مهمات وما اتصف به من سمات كان شيوعياً رائعاً من الطراز النادر.

وتذكرت الرفيق عدنان الدغيدي. وهو الرفيق الذي كان أحد المسؤولين في منظمة الحزب في البقاع. وكان عدنان إلى جانب اهتماماته المتصلة بوضعه الشخصي شيوعياً من الطراز الرفيع. عرفته المنطقة بصفته تلك. وعرفته أنا بالذات بتلك الصفة. وقد اختارته قيادة الحزب للقيام بمهمات كانت تتجاوز المنطقة، ومنها مشاركته بوفود حزبية إلى الخارج. وكان من أجمل تلك المهمات الحزبية في الخارج مشاركته في وفد بقيادة الرفيق نقولا شاوي، وكنت عضواً فيه، إلى قبرص بدعوة من الحزب الشيوعي القبرصي. تضاف إلى ذلك مهمات أخرى كان يكلف بها خارج منطقة البقاع. وأشهد من خلال علاقتي الوثيقة به قبل أن يستشهد بحادث غريب أنه كان من أروع الشيوعيين الذين عرفتهم.

وتذكرت الرفيق توفيق رزق. وهو شيوعي من نوع مختلف. إذ هو لم يكن عضواً في أي من المنظمات الحزبية. لكنه كان في حياته وفي ممارساته الشخصية وفي أفكاره وفي الموقع الذي اختاره لنفسه واختارته له منطقة البقاع الشمالي كان من أكثر الشيوعيين ارتباطاً بالحزب ودفاعاً عنه ومساهمة نشيطة في مختلف المهمات التي ارتبطت باسم الحزب. تعرفت إليه في ستينات القرن الماضي في إحدى النشاطات التي قام بها الحزب في البقاع في منطقة بعلبك الهرمل. وهو من بلدة رأس بعلبك المعروفة بخصوصيتها لكون جميع سكانها من الطائفة الكاثوليكية.

تذكرت توفيق رزق هذا الرفيق الشيوعي غير المنظم وأنا أستعرض ما تحوّلت إليه منطقة البقاع الشمالي هذه الأيام إلى مركز للصراعات المسلحة ولشتى أنواع الأعمال المخالفة للقانون. وتذكرته وتذكرت معه جيلاً رائعاً من الشيوعيين حلّ مكانهم في الحياة السياسية نمط غريب من القوى ومن الاتجاهات الداخلية والخارجية التي لا تربطها صلة بالموقع التاريخي لهذه المنطقة.

وتذكرت الرفيق بهيج قطريب. كان بهيج شيوعياً منذ شبابه الباكر. لم يترك منطقة الكورة التي كان أحد المسؤولين في المنظمات الحزبية فيها. لكنه في السنوات التي سبقت وفاته كان

مسؤولاً عسكرياً. وصارت تلك المسؤولية المهمة التي رافقته حتى آخر أيامه. ميزة بهيج أنه كان في شيوعيته إنساناً راقياً، إنساناً طيباً، إنساناً متواضعاً. لم أره مرة خلال معرفتي الطويلة به عابساً. كان دائم الابتسامة، دائم التفاؤل، عميق الارتباط بالحزب، راقياً في علاقاته مع الرفاق في كل المهمات التي كلف بها، بما فيها المهمات الصعبة المتصلة بالعمل العسكري. توفي وهو في إحدى المهمات العسكرية خارج البلاد.

وتذكرت الرفيق عبد الجليل خزعل. وأشهد أنني وجدت فيه منذ أن عرفته وهو في مطالع شبابه إنساناً من النوع الذي يستعصي حضوره في الوجدان على النسيان. عبد الجليل مناضل شيوعي من بعلبك، أمين لمدينته مثلما هو أمين لحزبه. لم يترك مناسبة حزبية إلا كان فيها حاضراً بكل شجاعته وبكل وفائه وبكل طبيئته. وكان في مظاهرة الثالث والعشرين من نيسان في عام ١٩٦٩ تضامناً مع المقاومة الفلسطينية في مقدمة الصفوف، وتصدى بصدرة لرصاص قوى الأمن التي كلفت بقمع المظاهرة، وكان أحد الجرحى. واستمر عبد الجليل في إرتباطه بالحزب حتى وفاته نموذجاً رائعاً وراقياً للشيوعي وللإنسان.

وتذكرت الرفيق وليد صعب رئيس إتحاد الشباب الديمقراطي. وليد هو الابن الرائع لرفيقيين تاريخيين في الحزب هما لويس وماري صعب. كان وليد نموذجاً للشباب الطموح الذي يربط طموحه الشخصي بالمهمة الحزبية التي كان مكلفاً بها. كان متميزاً في نشاطه في العمل الحزبي قبل أن يصبح رئيساً لإتحاد الشباب. وقد قادته نشاطاته وكفاءاته وشجاعته والكثير من سماته الطيبة ومن حب الرفاق الذين عمل معهم إلى أن يصل إلى ذلك الموقع الذي كان واعداً في نقل إتحاد الشباب الديمقراطي إلى مرحلة متقدمة في نشاطه وفي دوره في الحركة الشبابية. عرفته باكراً من خلال والديه، ثم من خلال عمله في الحزب وفي الاتحاد. ورأيت في ممارسته لمهامه الحزبية بشائر قائد ذاهب بسرعة إلى مركزه في المسؤولية، ليس في إتحاد الشباب وحسب بل في الحزب ذاته. لكن حادثاً مؤلماً أدى إلى فقدانه وهو في أوج عطائه وفي أوج نشاطه الواعد.

وتذكرت الرفيقة ثريا خوري. وهي من أكثر النماذج الشيوعية إرتباطاً أخلاقياً ووجدانياً بالحزب وبأفكاره وقيمته، ومن أكثرهم وفاء وعطاء وتفانياً ومن أكثرهم إستعداداً للتضحية من أجل الحزب ومن أجل أفكارها فيه. وقد قدّمت ثريا كل حياتها للحزب من دون تردد. وعاشت في الظل على امتداد عقود في كل من سوريا ولبنان. وهي تنتمي إلى عائلة جميع أعضائها شيوعيون، آباء وأبناء وأحفاد. وقد أتيت لي أن أتعرّف إليها وأعمل معها في مهمات حزبية عديدة على امتداد ما يقرب من

ثلاثة عقود. وإذ أتذكرها اليوم مع هذه الكوكبة من النماذج الشيوعية الرائعة، فلأنني أعرف عن قرب كل الخصال التي ميّزت شخصيتها.

وتذكرت الرفيق حنا صعيد الذي كان مسؤولاً عن جمع الإشتراكات لجريدة النداء لدى صدورها في عام ١٩٥٩ تحت إدارة الشهيد فرج الله الحلو. كان حنا من أكثر الرفاق الشيوعيين الذين عرفتهم ارتباطاً حقيقياً بالحزب. وأشهد أنه قام بتلك المهمة بأرقى ما يمكن أن يقوم إنسان شيوعي أو غير شيوعي بمهمة مكلف بها. جال حنا لبنان من أقصاه إلى أقصاه في سيارة أجرة أحياناً ومشياً على الأقدام في أحيان كثيرة. وهكذا تمكن من نشر الجريدة على الصعيد اللبناني.

كنت على علاقة حميمة معه على امتداد حياته. وأذكر أنه عندما نشأ خلاف في الستينات بين الجيل الثاني من قيادة الحزب وبين الحرس القديم ومن ضمنهم زوج ابنته صوايا صوايا لم يغير حنا طريقة عمله في تلك المهمة التاريخية التي جعلته في نظري أحد الرفاق الرائعين الذين تستعصي أسماؤهم وسيرهم على النسيان.

وتذكرت الرفيق الياس البواري نقابيا عماليا وقائد حزبيا

وتذكرت الرفيق حسين حمدان احد مؤسسي مركز الابحاث والناشط الاقتصادي واحد المسؤولين عن مالية الحزب الشيوعي.

وتذكرت الرفيق كميل مجدلاني الذي تعرفت اليه في مطالع الخمسينات القرن الماضي .

وتذكرت الرفيق جورج الهبر احد قادة الحركة العمالية.

وتذكرت الصديق ايمانويل البطل شقيق جورج البطل مهندسا معماريا من الطراز الرفيع.

وتذكرت الرفيق همدان السيد. ومن لا يعرف ابن بلدة عيترون وابن مدينة بيروت، الشيوعي الثابت بهدوء ورسوخ ومن دون تأفف في كل المهمات التي كلفه بها الحزب، من أبسطها إلى أكثرها دقة وصعوبة. وهو استمر في المكان ذاته حتى وفاته داخل مكاتب الحزب يقدم للحزب وللرفاق في القيادة ما يحتاجونه من خدمات طباعية، وأمور أخرى حتى خارج هذه المهمة. عرفت همدان منذ

وقت مبكر. وظللت عميق الصلة به وعميق الثقة بوفائه للحزب وبأمانته بكل ما يتصل بالحزب. همدان واحد من روائع النماذج الحزبية في سلوكه كإنسان وفي نشاطه كشيوعي.

وتذكرت الرفيق سعد سمهون. ما أجمل هذا الإسم. كان سعد أحد رجال الأعمال في ميدان المنتوجات الزراعية التي كانت تباع في إحدى المواقع الكبيرة في بيروت. وكان سعد شيوعياً حقيقياً من دون الإدعاء للانتماء إلى الفكر الماركسي، كان دائم الاستعداد للمشاركة في أعمال كانت تفرضها قيادة الحزب على الشيوعيين. وأذكر من بين تلك المهمات اثنتين. المهمة الأولى في عام ١٩٥٨ في إطار المقاومة التي كان الحزب فيها شريكاً في الثورة التي قامت ضد الرئيس كميل شمعون. كان سعد شريكاً لي في أحد مراكز المقاومة في العاصمة بيروت في محلة الطريق الجديدة في المهمات التي كنت مكلفاً بها. كنت يومها في مركز المقاومة المشار إليه مسؤولاً عن الحرس الحزبي. وكان سعد رفيقاً رائعاً لي في تلك المهمة. أما المهمة الثانية فكانت في عام ١٩٥٩ عندما قررت منظمة الحزب في الضاحية الجنوبية القيام بتوزيع جريدة الأخبار بمشاركة عدد كبير من الرفاق والاستعداد في الآن ذاته للمواجهة مع البعثيين الذين قرروا منع الرفاق من توزيع الجريدة بالقوة. إذ كان الحزب في ذلك العام قد دخل في صراع سياسي مع الرئيس جمال عبد الناصر. وكانت الجريدة حافلة بالمقالات التي تنتقد سياساته. شاركت يومها مع الرفاق الآخرين في توزيع الجريدة واخترت أن أكون في المقدمة. وفوجئت في لحظة الاشتباك أن اثنين حاولا الاعتداء عليّ من الخلف. فتصدى لهما الرفيق سعد سمهون ورفيق آخر له. لكنني لم أسلم من الاعتداء. إذ ضربني من الجهة المقابلة شخص بكرسي صغير أطلقه باتجاهي فصدمني في رأسي وسال الدم. فنقلني سعد بسرعة إلى منزل والد الرفيق محمد علي مروة أحد وجهاء العائلة. وهكذا يكون سعد بمعرفتي فيه وعلاقتي معه في مهمات حزبية متعددة أحد النماذج الرائعة للشيوعيين.

ولا انسى الرفيق الدكتور حكمت الامين احد المسؤولين عن مستشفى النجدة الشعبية في مدخل مدينة النبطية ودوره في الحزب.

هذه النماذج الرائعة من الشيوعيين الذين أستحضرهم هنا ليسوا سوى نماذج، ولهم في حياة الحزب الشيوعي وفي تاريخه القديم والحديث قرناء مثلهم أو حتى أكثر منهم أو من بعضهم في السمات التي حرصت أن أستذكرها لكل واحد من هذه النماذج الشيوعية والإنسانية الرائعة والراقية.